بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 10 يناير 2022

دروب تأويل الأسلاف.. هايدغر قارئاً كانط

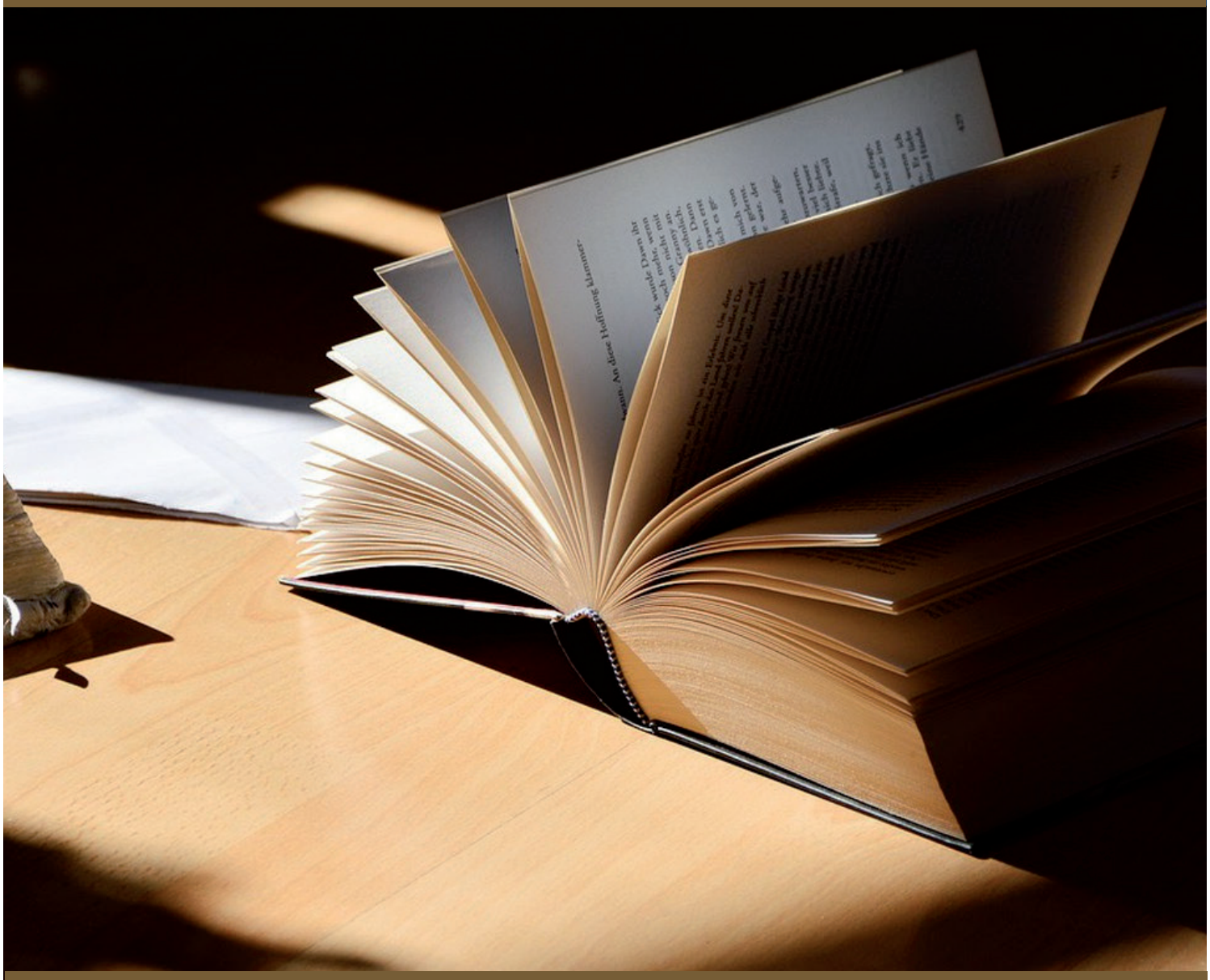

رسول محمَّد رسول
باحث عراقي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

مدخل عام[1]؛

لا يتقصَّد هذا البحث تقديم مطالعة شاملة للاهتمام الذي سخي به الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر(1889-1976)، وهو يقرأ خطاب مواطنه إيمانويل كانط (1724-1804)، إنّما هو محاولة متواضعة لرسم جوانب من تلك القراءة الدؤوبة، والتجوال المثمر في حدائقها المعرفية الغنّاء، خصوصاً وأنّ رحلة هايدغر مع كانط امتدّت لأكثر من نصف قرن، وتلك فترة طويلة لم ينشغل بها فيلسوف؛ لا هو بالكانطي ولا بالكانطي الجديد، كمارتن هايدغر، الذي بدا مفتوناً بخطاب سلفه أيّما افتتان خلال تلك السنوات الطويلة، حتى إنه، وهو في منزله، وكلّما التفتَ شطْر رفوف مكتبته، يرى نفسه مضطراً إلى تصفُّح أحد مؤلَّفات كانط، فيمضي لينشغل به عن غيره، ويجلس ليقرأه، ويعيد قراءته ليكتب ويكتب دون ملل؛ وذلك افتتان يبدو مثيراً للفضول؛ لكون صاحب (**الكينونة والزمان**) ليس صاحب (**نقد العقل المحض**) من حيث المعنى والمبنى، لكن «المسكوت عنه» في فلسفة سلفه، وكذلك اللامفكَّر فيه، لا ينفكّ يستدرجه مفتوناً به في رحلة ولع قرائي تأويلي يقصد موْقعة في صيغة جديدة نادرة الاهتمام في تاريخ الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

خلال تلك الفترة الطويلة، بدا الخطاب الكانطي كينونة معرفيّة فلسفيّة تحت اليد يتداولها هايدغر بعشق مُستدام، كان ذلك الخطاب هو ما يوجد أمامه، فراح يظفر بكينونته مغوياً مُغتوى بها حدَّ الافتتان الهميم بتلابيب عمقها الدلالي. كان ينظر إليها مكتسباً سابقاً (Vorhabe)، ورؤية سابقة (Vorsicht)، وتصوُّراً سابقاً (Vorgriff)، بمعنى أنّ خطاب أو كلام (Rede-Discourse) كانط هو مُعطى له سلفاً، على أنّ «سلفاً» هذه، وهنا تحديداً، لا تعني قبلياً (a priori متسلطاً على نحو مفارق إنّما بدلالة ما هو وجوداني أنطولوجي معرفي).

لقد سعى كانط إلى تقديم تبيينات وتفسيرات وتأويلات لجُلّ ما أعمل تفكيره فيه هذا الفيلسوف المدقِّق، وكان ما هو معروض أمام هايدغر جُملة تلك المبيَّنات والمفسَّرات والمؤوَّلات، ما يعني أنّ كانط قدَّم مقروءه الفلسفي لمجرى ما فكَّر فيه طول حياته الفكرية؛ قدَّم معانيَ ومفاهيم ومسائل وقضايا ونظريات ورؤى وتفسيرات وإشكاليات فلسفية عويصة في زمانه؛ وذلك هو جُماع كلامه الفلسفي، وكلّ ذلك أنتج خطابه الذي له، ليأتي هايدغر، بعد أكثر من عشرة عقود على رحيل كانط، ويقرأ المقروء الكانطي في نحو ما يُفهم منه أنّه قراءة المقروء أصلاً. إنّ قراءة القراءة الكانطية، أو القراءة المؤدية إلى القراءة الكانطية، كانت منال هايدغر ومأربه وفق استراتيجية تجربة فلسفية معرفية وجودانية تواصلية فريدة في حوارها الجدلي (des Streitgespräches) بدا عزمها القرائي يشدُّه (=هايدغر) أبداً إلى التجوال بين أزاهير حدائق المقروء الكانطي العاطرة فكراً على نحو فاتن، وكان ذلك التواصل القرائي يوطِّد عراها، والتلاقي الوجودي يبسط

1 مقدمة كتابنا فتنة الأسلاف؛ هايدغر قارئاً كانط - مخطوط

جماليات التجوال المثمر بين منعطفات ومنحنيات تضاريسها المعرفية التي جعلها هايدغر مسكنه حيثُ أقام فيه لعقود طويلة من الزمان بعشق مُستدام.

1

منذ بداية صدور مؤلَّف كانط الثري (**نقد العقل المحض**)، في طبعته الأولى عام (1781)، كانت الآراء المضادّة له تتسع، فقرّر هذا الفيلسوف إجراء تصحيحات وتعديلات ليخرج بها الكتاب في طبعته الثانية عام (1787) مزهواً بتعديلات طفيفة راقت لكاتبه.

وعندما رحل كانط، مطلع القرن التاسع عشر (في عام 1804)، لم يترك مجموع مؤلَّفاته تراثاً معلوماً له فحسب؛ بل ذلك الجدال واسع النطاق بشأن خطاب فلسفته، ذلك الذي صار يمرح ويسرح في عقود القرن التاسع عشر أفقياً، حتى بدأ المتابع يستكشفُ جدليّة تواصليّة نقديَّة فريدة امتاز بها ذلك القرن، وهذا ما تناولتُه شخصياً من ذي قبل في فصول كتابي (**الحضور والتمركز؛ قراءات في العقل الميتافيزيائي الحديث**)[2]. وكنتُ أقصد بـ «جدلية التواصل النَّقدي» علاقة المثالية الألمانية بفلسفة كانط، فهي علاقة تواصلية من حيث ديمومة النقاش المستمرّ بين أطراف المشهد الفلسفي في تلك الفترة، وهي جدليّة كونها تكرّس الاختلاف والاتفاق مع فلسفة كانط. وفي كلتا الحالتين، كان الأمر فيها مفيداً وممتعاً وله جدواه المعرفية والفلسفية في ظلّ الروح النقدي، الذي ميّز الفلسفة الألمانية، والحسّ النقدي الذي طبعها.

يبدو لي أنّ هايدغر واصل الطريق في تلمّس جدلية تواصلية نقدية، وهو يقرأ ممكنات السؤال الفلسفي الكانطي، وكان أسلافه؛ مثل يوهان فخته (1762-1814)، الذي قرأ كانط، لكنّه اتّجه صوب الأنا المثالية بوعي ميتافيزيقي منظومي، وكذلك فردريك شلنج (1775-1854)، الذي كان يقرأ كانط بعمق، لكنه افترق عنه من دون التفريط بمثاليّته الميتافيزيقية، وأيضاً فلهلم هيجل (1770-1831)، الذي كان يقرأ كانط، لكنّه شيَّد عمارة فلسفية ميتافيزيقية نافرة الحضور[3]. أما طريق هايدغر، فقد بدت مغايرةً مقارنةً بروّاد المثالية الألمانية؛ حيث إنّه بقي في العالَم، بقي في الحياة، منتصراً للوجود والأنطولوجيا وممكن الوجود بذاته، أو الدّازين والكينونة الإنسانية.

وعندما انصرف هايدغر لقراءة كانط، كان يعلم أنّ الافتراق عنه يبقى الديدن المصيري، الذي لا يقبل الشك، لكنّ قراءته التأويلية لكانط اتخذت مساراً مختلفاً؛ فالتقاطع بينهما يبدو كبون شاسع، وهذا لا يعني أن هايدغر لم يخضع الفلسفة الكانطية إلى حبائل مصطلحاته ومفاهيمه وكلامه الفلسفي، فقد كان الأمر مجازفة،

2 انظر؛ رسول، محمَّد رسول، الحضور والتمركز؛ قراءة في العقل الميتافيزيائي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000، ص15.

3 للمزيد حول رواد المثالية الألمانية، انظر كتابنا؛ الحضور والتمركز؛ قراءة في العقل الميتافيزيائي الحديث، (م. م)، الفصل الثالث؛ «ميتافيزيقا فخته»، ص127 وما بعدها، الفصل الرابع؛ «ميتافيزيقا شلنج»، ص161 وما بعدها، الفصل الخامس؛ «ميتافيزيقا هيجل»، ص185 وما بعدها.

لكنّها المجازفة التي ظلّت تؤرّق فيلسوف الغابة السوداء طول نصف قرن؛ بل أكثر، وهو يقرأ كانط، ويُعيد قراءة نصوصه (Re-reading)، ويكتب عن كانط ويعيد الكتابة عن كلامه (Re-writing) بما لا يخلو من تعدُّد زوايا النظر القرائية، وهي الزوايا التي تشكِّل المجموع الاستراتيجي لتلك القراءة التي جرّبت التأويل فضلاً عن الشرح والتوضيح والتفسير.

في المنظور النيتشوي، وهو ما تعلَّم منه هايدغر، «قلَّما يكون فكر الفلاسفة اكتشافاً؛ بل هو، بالأحرى، إعادة تعرف وتذكُّر، ورجوع وعودة إلى مؤونة للنفس واحدة أزلية نائية؛ مؤونة انبثقت منها تلك المفاهيم في زمن غابر»[4]. ولما كان هايدغر ينظر إلى فكر الفلاسفة على أنه دازين أو ممكن وجود بذاته، ينظر فيه على أنه كينونة معرفية، فإنّه، في عام (1923)، راح يؤكِّد أنّ الهرمينوطيقا بوصفها نمطاً لكينونة «لا تهدف إلى المعرفة؛ بل إلى التعرُّف وجودياً، يعني أن الهرمينوطيقا تستهدف الكينونة، إنها تتكلَّم انطلاقاً من حالة التبيين (Auslegung) ولأجلها»[5]. أو تتكلَّم من حالة الاستيضاح[6] ولأجلها. وهذا يعني أنّ القراءة لدى هايدغر هي تعرُّف أنطولوجي وتذكُّر وجودي، وليست آلية معرفية خالية من الأبعاد الوجودية والأنطولوجية فحسب، وهي، بذلك، إنما تبتعد عن مجرد الفهم المعرفي الخالص للخطاب الكانطي أو غيره كما هو تأريخ القراءات الهايدغرية لعدد من الفلاسفة ابتداء من فلاسفة الإغريق حتى نيتشه.

في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، أوضح هايدغر قائلاً؛ «لا نحتاج إلى أن نخبر عن فلسفة كانط في نظريات إجمالية وأحاديث عامة؛ بل ننتقل إلى **هذه الفلسفة ذاتها**، فمنذ الآن ينبغي أن **يتكلَّم** كانط وحده»[7]. وذلك تقويض لما التأم حول كلام كانط من تفسيرات وشروح أضرَّت بفلسفة كانط نفسه، ولا سيما تلك القراءات التي كشف عنها فلاسفة الكانطية الجديدة أو المحدثة، التي كانت ضاربة في زمانه بين الأوساط الفلسفية الألمانية، ولا سيما الجامعية منها.

في الواقع يحمل هذا التوضيح، في حدِّ ذاته، أهمية قرائية هايدغرية منهجية لافتة، فها هي كينونة الخطاب الكانطي ماثلة أمام هايدغر، مؤلَّفات كانط بوصفها كينونة تحت اليد، موجودة على مكتب هايدغر نفسه، إنّها ما يوجد أمامه، وتلك ملاقاة وجودية ذات بعد أنطولوجي، لكنّ هايدغر ليس غرضه إنجاز ملاقاة كهذه فحسب، أو ملاقاة العين لكتلة الورق على نحو حسيّ احتفالي فارغ الدلالة، إنّه كان يسعى للتواصل مع كلام تلك المؤلَّفات، ليس هذا فحسب؛ بل كان يريد اعتلان قراءته المتفرّدة لها، يريد الخروج بها على

4 نيتشه، فريدريش، ما وراء الخير والشر؛ تباشير فلسفة المستقبل، ترجمة جيزيلا فالور حجار، مراجعة د. موسى وهبه، دار الفارابي، بيروت، 2003، ص45.

5 هايدغر، مارتن، أنطولوجيا هرمينوطيقا الواقعانية، ترجمة د. عمارة الناصر، دار الجمل، بغداد، 2015، ص53.

6 يفضِّل الدكتور مشير عون ترجمة مصطلح (Auslegung) إلى «الاستيضاح». انظر؛ عون، مشير باسيل، الفسارة الفلسفية؛ بحث في تأريخ علم التفسير الفلسفي الغربي، دار المشرق، بيروت، 2004، ص114

7 هايدغر، مارتن، السُّؤال عن الشيء؛ حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كنت، ترجمة إسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012، مقدمة المترجم، ص94.

نحو هايدغري ولكن ليس عبر قراءة عموماتية، فهايدغر ليس بالمؤرِّخ التعليمي على نحو بيداغوجي (Pedagogical)، ولا بالمعلِّم بسيط المعرفة المتخصّصة، ولا ذلك السوقي الذي عندما يجلس مع أصحابه في المقهى يدّعي أنه يعرف عن كانط ما لا يعرفه جلّاسه أنفسهم، فليس ذلك شأن شخصية هايدغر؛ بل شأنها أن تجعل من كانط يتكلَّم فلسفته، يجعل كلام تلك الفلسفة مبسوطاً في لغة (Sprache) كانط، أن يجعل تلك الفلسفة تتكلَّم بلسان كانط، بمعنى أنّه يتوجَّه ويتوافر ويبسط عنايته لكانط في ذاته، يجعل ما هو في ذاته مأوى له، فكانط يتملك فلسفته وقوله وخطابه ولغته، ولذلك هو الأجدر بكينونة خطابه، لكنّها السكنى الهايدغرية في المأوى الكانطي لم تكن تمنع ولادة قراءة تأويلية فريدة كانت، في يوم ما، هي ذاتها طموح كانط نفسه وإن تأخرت. أليس كانط نفسه هو الذي قال يوماً؛ لقد «جئتُ مع كتاباتي قبل الأوان بقرن من الزمان، لن يفهمني الناس بحقّ إلّا بعد مئة عام، وإثر ذلك سيدرسون كتبي من جديد، ويعترفون بقيمتها»[8]. وها هو هايدغر يأتي، بعد كلّ تلك العقود من الزمان، ليدرس خطاب مؤلّفات سلفه كانط، ويتعرَّف إلى موجوديتها، وينصرف إلى قراءتها بحسب تأويليّته لكلامها الذي لها.

كان هايدغر، إزاء ذلك، غاية في التهذيب؛ لقد راح يحترم كينونات النصوص الكانطية كما هي، وراح، أيضاً، يحترم مؤدّاها النصي؛ وجمالياتها البلاغية، والتزاماتها التوثيقية، وبنيتها البحثية؛ بل ويحترم مساقاتها التاريخانية، فتلك النصوص هي الابنة الشرعيّة للزمان الذي عاش فيه كانط، ولزمانية التفكير الكانطي. وكان هايدغر، في كلّ ذلك، أكاديمياً بارعاً من حيث احترامه لعبقرية كانط كاتباً فلسفياً شديد الكفاءة والحرص على بناء جُملة لغوية فلسفية رصينة باعتبار «أن اللغة هي التعبير الخارجي عن الكلام»[9]. وفي الوقت نفسه، وكما يقول هايدغر، راح «ينتقل إلى هذه الفلسفة ذاتها»، وهذا يمكن أن يعني أنه ينطلق من رؤيته القرائية التي تسعى إلى تقويض كلّ الأسوار القرائية، التي تصدَّت لتلك الفلسفة في ذاتها؛ تصدَّت لقراءة فلسفة كانط قبله، تلك القراءات التي عمَّرت تفسيرات وتأويلات قرائيّة لمفاصل فلسفة كانط حتى أصبحت مكتسباً فهميّاً سابقاً، أصبحت رؤية قرائية سابقة، أصبحت تصوُّرات قرائية سابقة، وبالمرّة أصبحت تلك القراءات كينونات فهم سابقيَّة أمام هايدغر، تلك السابقيَّة التي تصدّى لها هايدغر متفكّراً في شؤونها ليختلف عنها صوب رؤيته القرائية الخاصة به للسؤال الفلسفي الكانطي.

---

8 Varnhagen von Ense, *Tagebücher,* 1, 46

ذكر هايدغر هذا النص مقتبساً في كتابه؛ هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء؛ حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كنت، (م.م)، مقدّمة المترجم، ص95.

9 هايدغر، مارتن، الكينونة والزمان، ترجمة فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2012، ص312. تحدّث غادامر عن أسلوب هايدغر في إلقاء المحاضرات، قائلاً؛ «كان ظهوره في قاعة الدرس مصحوباً، إلى حدٍّ كبير، بالثقة بالنفس لشخص عرف أنه سيكون ذا تأثير معيّن، ولكن جوهر شخصيته وتعاليمه يكمن في الطريقة التي يندمج بها في عمله، وفي الطريقة التي بها تشرق أفكاره، فبسببه تصبح المحاضرة شيئاً جديداً على نحو تام؛ فهي لم تعد إلقاء درس لأستاذ جدَّد كلّ جهوده من أجل البحث والنشر». ويضيف غادامر؛ «في جامعة ماربورغ، وعندما كان هايدغر يلقي محاضرته، كان المرء يستطيع أن يشاهد الأشياء كما لو أنّها مسبوكة في شكل مجسم». غادامر، هانز، التلمذة الفلسفية؛ سيرة ذاتية، ص107، ص108 – 109. أما جوزيف كوكلمانس فيقول عن أسلوبية هايدغر، قائلاً بما لا يخلو من سخرية؛ «لم تعد اللغة مجرّد أداة، ولكنّها أصبحت نفسها تتكلم». ذكره؛ غاسبر، دايفيد، مقدمة في الهرمينوطيقا، ترجمة وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم – ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص200. أمّا دايفيد غاسبر نفسه، فيقول عن تلك الأسلوبية إنّ «هايدغر فيلسوف صعب بسبب أنّه ابتكر في الألمانية لغة عالية الخصوصيّة، واستعملها آلة غوص وراء التفكير ومبادئ الأفكار، ليكشف عن جذورها وأصولها الأولى». ص145.

إن التقويض الهايدغري، في الواقع، سيتّخذ دلالة العزل هنا. وكان هايدغر قد حدَّد دلالة التقويض الإيجابية في الفقرة السادسة من (**الكينونة والزمان**)، وذلك خلال عرضه مسألة الكيفية، التي نؤرِّخ بها لتأريخ الأنطولوجيا، ومن ثَمَّ عاد، في محاضرته (**ما الفلسفة؟**)، إلى توضيح تلك الدلالة قائلاً؛ إنّ «اكتساب التاريخ هو ما نعنيه بمصطلح التقويض (Destruktion)، فهو لا يعني التفكيك والتصفية والتنحية جانباً للتقريرات التأريخية البحتة عن تأريخ الفلسفة؛ التقويض يعني أن نفتح آذاننا، أن نجعل أنفسنا منفتحين لما يحدِّثنا به التراث من حيث وجود الموجود، وبالاستماع إلى الحديث نحصل على الاستجابة»[10]. وبترجمة أخرى لهذا النص نهض بها الدكتور محمد مزيان، نقرأ؛ «تملّك التاريخ هو ما تعنيه كلمة تقويض، معنى هذه الكلمة محدّد بوضوح، فالتقويض لا يعني الإلقاء بالشيء إلى العدم؛ بل الخلخلة والمجاوزة وتجنب العبارات التاريخية المحض حول تأريخ الفلسفة، يعني فعل التقويض فتح آذاننا وجعلها حرّة تجاه ما هو مستعصٍ علينا ضمن التقليد الذي يمنح باعتباره كينونة الموجود، وبإصغائنا لهذا النداء نتوصَّل إلى تحقيق الملاءمة»[11]. فلم يكن من مَهام هايدغر نفسه التصدِّي لتفكيك وتعرية ونقد كلّ أشكال السابقيّات، التي التفّت حول «ذات» فلسفة كانط، نعم عندما راح هايدغر يدوِّن عبارته «فلسفة كانط في ذاتها»، كان مضى على وفاة كانط مئة وثلاثون سنة، وخلال تلك السنوات ظهرت كتابات هائلة عن فلسفة صاحب (**نقد العقل المحض**). ولذلك، اختصر هايدغر الطريق، ذهب مباشرة إلى بنية الفلسفة الكانطية في ذاتها، ما يعني أنّه ذهب نحو الأصل الكانطي، وهايدغر صاحب الولع بكلّ ما هو أصل عبر الانفتاح على ذلك الأصل والاستماع إليه بقصد الإصغاء إلى الصوت الكانطي في ذاته فيه، الإصغاء إلى حديثه، إلى كلامه، إلى ما لم يقله كانط نفسه، لكنه فكَّر به وفيه؛ بل إلى ذلك الجديد الذي ميّز كانط به دون أن يتنبه إليه أحد من قرائه.

إنّ كانط، في أصل خطابه وكلامه وقوله، وفي ما لم يقله، هو الذي جعله هايدغر البنية الأرضية الصفر لانطلاق قراءته بكلّ أشكالها؛ التوضيحية والتفسيرية والتأويلية. أمّا ما التفَّ حول الكلام الكانطي من ذي قبل حتى شكَّل نقاباً (das Eingehüllte) دُسَّت تحته فلسفة كانط، فكان بإمكان هايدغر نزعه، نزع ذلك النقاب (Enthüllung) في قراءة سجاليّة جداليّة، لكنّه فضَّل نزع النقاب عن مكنونات فلسفة كانط في ذات كلامها عبر التوجُّه صوبها لتخلو له القراءة الخاصة به تحت هدي زاوية نظر (Hinsicht) تأويلية معيّنة خطَّط لها هايدغر بعمق ودراية وذكاء. أمّا ما كان ملتفاً تحت نقاب شيَّده غيره من القراء عن كلام كانط فلم يكن يعنيه؛ إذ أودع ما تحت النقاب؛ بل النقاب الملتف حول كانط ذاته، أودعه إلى ذاته (ذوات تلك القراءات) بوصفه

10 هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟، ضمن كتاب؛ هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشعر، ترجمة فؤاد كامل ومحمود رجب، مراجعة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 1974، ص66 – 67. ومحاضرة هايدغر ما الفلسفة؟ بقلم محمود رجب. وحول مفهوم «التقويض»، انظر أيضاً؛ هايدغر، مارتن، الكينونة والزمان، ص75 وما بعدها. ما يعني أنّ تحديد دلالة «التقويض» لدى هايدغر مرّ بثلاث مراحل هي؛ مرحلة محاضرات 1923، التي نشرت تحت عنوان أنطولوجيا. هرمينوطيقا الواقعانية، كما ظهر المصطلح في نهاية الفقرة 10، ص94، وكذلك في نهاية الفقرة 20، ص150 من الترجمة العربية (د. عمارة الناصر)، ولكن من دون تحديد دلالته التعريفية؛ ومرحلة الكينونة والزمان عام 1927، حيث ورد رأي هايدغر التفصيلي في الفقرة السادسة، ص75؛ ومن ثَمَّ المرحلة الثالثة، وهي شروحات على مرحلة عام 1927، كما ظهرت في محاضرة ما الفلسفة؟ عام 1929.

11 هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟ ضمن كتاب؛ هايدغر، مارتن، الفلسفة، الهوية والذات، ترجمة؛ محمَّد مزيان، تقديم محمَّد سبيلا، منشورات ضفاف/ بيروت، ومنشورات دار الأمان/ الرباط، ودار كلمة/ تونس، ومنشورات الاختلاف/ الجزائر عام 2015، ص21 - 22. كلمة «الاستجابة» في الترجمة الأولى هي نفسها كلمة «الملاءمة» في الترجمة الثانية.

بنية مفهومية سابقة تملَّكت رؤيتها وتصوراتها التي لها، أودع كلّ تلك القراءات إلى ذواتها قدر تعلُّق شأنها بكلام فلسفة كانط ليبقي فقط قراءته، ولاسيما أنه هو الذي سيقول؛ «إنّنا لا نجد الإجابة عن سؤال ما الفلسفة؟ في العبارات التأريخية؛ بل نجدها في التحاور مع ما قد سُلِّم إلينا بوصفه وجود الموجود»[12]. بصريح العبارة؛ جعل هايدغر تلك القراءات، التي هي أحد ضروب التأريخ للفلسفة الكانطية، جعلها «هناك» ليكون هو نفسه «هنا» مع كلام كانط في ذاته بوصفه وجود الموجود، يكون هنا لتدلي كينونته الفاهمية به، وهي كينونة هايدغرية قرائيّة تأويليّة، تدلي بدلوها على نحو متفرِّد! ولا سيما أنه هو القائل؛ «إن التباحث مع الفلاسفة في ما يقولونه، وفي ما يعنيه قولهم؛ أي؛ في ما يتكلَّمون عنه، شيء مختلف تمام الاختلاف عن **تحديد** آراء الفلاسفة ورصدها»[13]. فهل كان هايدغر مخلاً أو غير أخلاقي عندما توجَّه نحو صلب الكلام الكانطي؟ وبالمرّة؛ هل كانت القراءة الهايدغرية لكلام كانط عنيفة كونها توجَّهت فوراً إلى ما يعنيه الكلام الكانطي بما يتضمّنه من مبادئ؟ هل كانت ملاقاته الوجودية مع كانط عبر متون كلامه ذات عنف وتغالب غير محببين للمتلقين، الذين أخذوا ينظرون إلى حالهم بأنَّهم مغيبون من جانب العمّ هايدغر؟ أعتقد بأنّ هايدغر أراد خلق نمط علاقة أنطولوجية وجودية مغايرة مع الكلام/الخطاب/الفلسفة الكانطية حتى يتنّسى له القول؛ ها أنذا هنا، وهذه كينونة قراءتي التأويلية لكلام كانط، أنا الذي فُتنتُ بعبقريّ ألماني أعدّه سلفاً لامعاً من أسلافي الفلاسفة، الذين أحببتهم، وعشت معهم سنوات من عمري دون ملل، أو ضجر، أو هزيمة، في البيت والجبل والجامعات ومعاهد الدرس داخل ألمانيا وخارجها.

لقد كانت فلسفة كانط في ذاتها قد شيَّدت سابقيتها الخاصة بها مكتسباً سابقاً، ورؤية سابقة، وتصوّراتٍ سابقة، موضوعة أمام هايدغر، كانت تلك الفلسفة، في حدِّ ذاتها، هي قراءة كانط لمجمل ما كان يتفكَّر به وفيه خلال حياته حتى مماته، لتأتي القراءة الهايدغرية نشاطاً تعرُّفياً تالياً يستيقظ على فجر السابقيَّة الكانطية في كلامها الذي لها، لتخلق تلك القراءة كينونة تأويلية، ولذلك يُكمل هايدغر نصّه السابق، فيقول بين عامي (1936/1935)؛ «إن ما **نضيفهُ** هو فقط أن نقدِّم، بين الفينة والأخرى، **إرشاداً** يكمن معناه واتجاهه في أنْ **لا نحيد** خلال سيرنا عن **طريق السؤال**، وهكذا؛ فالمحاضرة هي نوع من إشارات الطريق، إشارات الطريق غير مُهمة بالمقارنة مع ما يجري في الطريق ذاته، إنّها تظهر فقط بين الفينة والأخرى على جانب الطريق، لكي تشير وتختفي من جديد عندما نمرُّ بها»[14].

---

12 هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟ ترجمة؛ محمود رجب، ص66. ضمن كتاب؛ هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشعر. هذا ويُترجم الدكتور عثمان أمين هذا المقتبس إلى؛ «إننا سنجد الإجابة على السؤال عن ماهية الفلسفة، لا في أقوال تأريخية تسجيلية عن تعريفات الفلسفة؛ بل من خلال الحوار مع ما قد سُلِّم إلينا من جهة التقاليد على أنه كينونة الكائن». هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟ ضمن كتاب؛ هايدغر، مارتن، في الفلسفة والشعر، ترجمة وتقديم الدكتور عثمان أمين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963، ص59.. أما الدكتور جورج كتورة، فيترجم النص، بمراجعة الدكتور جورج زيناتي أعلاه، إلى الآتي؛ «إننا لن نجد الجواب عمّا تكونه الفلسفة عبر أقوال تأريخية [الهمزة من عندنا] تتناول تحديدات معينة؛ بل عبر ما ترويه، ممّا يعتبر تحديداً لوجود الموجود». انظر؛ هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟ ترجمة د. جورج كتورة، مراجعة د. جورج زيناتي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الرابع، خريف 1988، ص30.

13 هايدغر، مارتن، ما الفلسفة؟، ص65. وترجمة الدكتور عثمان أمين، المصدر السابق نفسه، ص57، وهذا نصها؛ «فرق بين آراء الفلاسفة ووصفها، وبين مساجلتهم في آرائهم؛ أي مناقشة المبادئ التي يجعلونها أساساً لكلامهم».

14 هايدغر، مارتن، السُّؤال عن الشيء، ص94. مفردة «المحاضرة» المقصود بها هنا؛ محاضرة هايدغر السؤال عن الشيء.

يبدو لي أنّ ما كان مُهماً بالنسبة إلى هايدغر هو «الطريق ذاته»، الطريق الكانطي ذاته، طريق الكلام الكانطي الذي جعله هايدغر طريقاً للسؤال. إنّ عبارة طريق السؤال «Weg der Frage» تجعلنا نقسِّم الاهتمام القرائي الهايدغري لفلسفة كانط، في موضع معيّن لها، إلى مرحلتين هما؛

الأولى؛ مرحلة التعرّف المجسَّد، أو التعرُّف الوجودي إلى عالَم المكتوب الكانطي، وتلك ملاقاة أولية همَّ بها هايدغر بحصر مؤلَّفات كانط لتكون ما تحت اليد، وتكون ما هي منظورة أمامه.

الثانية؛ مرحلة التعرُّف القرائي، الذي يُريد تحقيق هدف مُنجز تأويلي، بمعنى الشروع بقراءة تأويلية للكلام الكانطي، وها هو المنجز، وقد تبدّى ماثلاً لهايدغر، جاهزاً للقراءة، فنحن إزاء «إضافة» يعلنها هايدغر وهو يريد تقديم كلام الخطاب الكانطي على مائدة المساءلة، يضع ذلك الخطاب على طريق السؤال بوضع ما يسميه هايدغر **الإرشاد** الذي سيضبط **طريق السؤال** لكي لا يحيد عن جادّة المبتغى؛ أي لا يحيد عن الانتقال إلى المرحلة القرائية الثانية؛ مرحلة القراءة التأويلية، أو مرحلة الممارسة القرائية التأويلية، التي سيبسطها هايدغر إزاء الكينونة المعرفيّة للكلام الكانطي في ذاته، من دون تلك الأسوار التأويلية، التي التفَّت حول خطاب كانط الفلسفي طوال عقود متواصلة من الزمان، وهي الأسوار التي تفلّت هايدغر من أسر فخاخها منتصراً لخصوصيّة ومقام ومكانة قراءته التأويلية لكانط، إلا أنه ينبغي تأكيد أنّ تلك الأسوار كانت، في حدِّ ذاتها، باعثاً مهماً للقراءة الهايدغرية التي يبدو أنها تتقاطع مع قراءة فلاسفة الكانطية الجديدة للأثر الكانطي، وهي القراءات التي كانت سائدة في الأوساط الفلسفية المحيطة بهايدغر في الوسط الأكاديمي كأقطاب مدرسة ماربورغ الألمانية، ومنهم؛ هرمان كوهن (1842-1918)، وبول ناتورب (1854–1924)، وأرنست كاسيرر (1874-1945).

ويبدو أنّ فكرة **الطريق**، في عبارة هايدغر «طريق السؤال»، ذات ارتباط بحكاية **المنعطف** الهايدغري، الذي كان تحولاً من تحوّلات فلسفته، فبعد رجوعه إلى كوخه المتواضع في الغابة السوداء (شفاردتسفالد)، إثر الأزمة السياسية التي عصفت به في علاقته بالنازية، كتب رسالة إلى هانز غادامر أوضح فيها أنّه «يشعر بنشاط منتجعه المألوف القديم. وكتب؛ كلّ ذلك حدث لي بسرعة، فسمى هذه الخبرة الفكرية **بالمنعطف**، ليس بالمعنى اللاهوتي لمفهوم الهداية، إنما بالمعنى الذي عرفه هو؛ المنعطف هو منعطف طريق كما في الطرق الجبلية. وفي هذه الحالة، ليس المرء هو الذي يغيّر اتجاهه، إنما الطريق نفسها هي التي تنعطف في اتجاه مقابل؛ أي؛ ترتقي»[15]. إن توجُّهاً من هذا القبيل سنجده في محاضرات/كتاب هايدغر (**السؤال عن الشيء**)، التي ألقاها بُعيد الأزمة السياسية التي حاقت به، ولا سيما أنه تحدَّث عمّا أسماه طريق السؤال فيها.

15 غادامر، هانز جورج؛ التلمذة الفلسفية. سيرة ذاتية، ترجمة حسن ناظم علي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013، ص113. أما الدكتور مشير عون فقد أشار إلى هذا المنعطف بقوله؛ «أخذ هايدغر يُسائل الكينونة من موقع إقبالها إلى الكائن الإنساني، لا من موقع إقبال الكائن الإنساني إليها أو من موقع تحققها في الوجود الإنساني، فكان المنعطف الفلسفي الخطير الذي وسم بميسمه الخاص سائر الكتابات التي أنشأها هايدغر بعد إصدار كتابه الأول الشهير الكينونة والزمان». انظر؛ عون، مشير، الفسارة الفلسفية؛ بحث في تأريخ علم التفسير الفلسفي الغربي، ص108.

2

في كتاباته، التي امتدت لنصف قرن (1912-1962)، كان كانط حاضراً فيها بمستويات قرائية متعدِّدة. وفي هذا السبيل، يبدأ الكثير من الباحثين عن كانط في المدوَّنات الهايدغرية بكتابه المرموق (**الكينونة والزمان**)، لكن المتابعة الحثيثة تأخذنا إلى أبعد من ذلك؛ أي إلى قبل سنة (1927)، تحديداً إلى عام (1912)، عندما كتب هايدغر مقالة تحت عنوان (**مشكل الواقعية في الفلسفة الحديثة**)[16]، وهي المقالة التي تؤكِّد، حتى الآن، بواكير التفكُّر الهايدغري المدوَّن عن كلام سلفه كانط، تلك البواكير التي سرعان ما تواصلت على نحو مستمر في بقية محاضراته وكتاباته التالية، ومنها محاضرات عام (1923)، التي حملت عنوان (**أنطولوجيا هرمينوطيقا الواقعانية**)[17]، أتى فيها إلى مناقشة آراء كانط، ما يعني أنّ فلسفة مواطنه كانت تستأثر باهتمامه بعد عام (1912)، لتستمر تالياً في درس شتاء (1925/ 1926)، وفي درس صيف (1927)، وكذلك في درس شتاء (1927/ 1928)، وكان في موسم محاضرات عام (1927/1926)، ألقى هايدغر محاضرة بعنوان «**تأريخ الفلسفة؛ من توما الأكويني إلى كانط**»[18]، وفيها تمَّت المقاربة والمقارنة بين فيلسوف وسيط وآخر حديث، ونُشرت في الجزء الثالث والعشرين من أعماله الفلسفية الكاملة سنة (2006).

وعندما صدر كتابه الخصب (**الكينونة والزمان**)، عام (1927)، كان اهتمام هايدغر بكلام فلسفة كانط له الأهمية الكبرى من حيث القبول والرفض؛ فقد استمرّت الأفكار الكانطية تأسره ولا فكاك من الإصغاء إلى صوتها الفلسفي، ولا الاكتفاء بدراساته السابقة عن مواطنه الألماني كانط، الذي دخل إلى ثلاثة كتب مُهمة من مؤلَّفاته في خلال أقلّ من خمس سنوات.

وفي سياق ذلك نشر كتابه المفصلي (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)[19] عام (1929)، وكان في أصله ضميمة محاضرات ألقاها في أثناء الفصل الشتائي الدراسي (1925/ 1926) قبل صدور (**الكينونة والزمان**)، وتكرَّر إلقاء المحاضرات نفسها في أيلول/ سبتمبر (1928) في (معهد هيردر) في مدينة ريغا، ولم يكتفِ بذلك، إنّما ألقاها أيضاً في دافوس خلال شهر آذار/مارس (1929)، لينشرها في نهاية العام ذاته كتاباً تحت عنوان (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)، ويهديه تأبيناً إلى ماكس شيلر[20] بمناسبة مرور عام على وفاته (1928).

16 نشرت باللغة الإنجليزية لأول مرة في عام 1973؛

Heidegger M., «The Problem of Reality in Modern Philosophy», *Journal of the British Society for Phenomenology*, Vol. 4, N° 1, (January 1973).

17 وجد هذا الكتاب ترجمة عربية أولى له؛ هايدغر، مارتن، الأنطولوجيا؛ هرمينوطيقا الواقعانية، ترجمة د. عمارة الناصر، دار الجمل، بغداد، 2014. تم نشره بالألمانية عام 1988.

18 Heidegger M., *Geschichte der Philosophie von Thomas von Aquin bis Kant* (WS 1926-1927), GA 23, 2006

19 Heidegger M., *Kant und das Problem der Metaphysik* (1929), GA 3

20 فيلسوف ألماني (1874–1928). جاء إهداء هايدغر كتابه تأبيناً لشيلر بمناسبة وفاة هذا الأخير، الذي كان يناهض الفلسفة الكانطية والتجريبية معاً، ونحا في بحوثه المنحى الفلسفي الديني في محاولة منه لإحلال التكامل بين الروح والحياة، وكان له موقفه القلق من الكنيسة في كل حياته، وبدا الرجل موضع جدل في حياته، ويوصف بأنه أحد فلاسفة ألمانيا العظام. حول شيلر انظر ما كتبه عنه غادامر؛ التلمذة الفلسفية، ص71 وما بعدها. وأيضاً؛ د. جورج طرابيشي؛ معجم الفلاسفة، ص367 وما بعدها.

ويبدو أنّ تلك المحاضرات جاءت تطبيقاً مستفيضاً لما تناوله هايدغر في كتابه (**الكينونة والزمان**) عن كانط، فضلاً عن كونها تنطوي على بعد حجاجي جدالي للكانطيين الجُدد، الذين لم تعجبه مطارحاتهم حول كلام كانط، ما يعني أنّ «رجوع هايدغر إلى كانط ذو استراتيجية خاصة»[21].

وفي العام ذاته، أصدر هايدغر كتابه المفصلي أيضاً (**نقد العقل المحض؛ تأويل فينومينولوجي**)[22]، والكتاب في أصله كان عبارة عن دروس ألقاها حول كلام كانط في جامعة ماربورغ خلال شتاء العام الدراسي (1928/1927) في أثناء صدور (**الكينونة والزمان**)، وبقيت تلك المحاضرات حبيسة الأرشيف الهايدغري لسنوات طويلة حتى تنبَّه لها هرمان هايدغر (الابن) لينشرها بعد وفاة والده بعام واحد (1977) في كتاب مثَّل الجزء الخامس والعشرين من الأعمال الكاملة، وكان الأجدر بهايدغر نفسه نشرها كتاباً في أثناء حياته؛ لكي يقف عليها القارئ المهتم بفلسفة كانط كما يؤوِّلها هايدغر، ويعرف الفرق بينها وبين كتابه (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)، إلّا أنّنا لا نعرف سبب عزوف هايدغر عن ذلك عندما كان على قيد الحياة.

وفي تلك السنوات، كان هايدغر مولعاً بفلسفة كانط وكلامها على نحو مثير، حيث كان التداخل بين الكتابين الآنفين وفيراً فيما لو عقدنا مقارنة بين عناوين مباحثهما؛ بل في طريقة هايدغر القرائية لفلسفة مواطنه كانط. وفي عام (1927) ألقى محاضرة في جامعة ماربورغ تحت عنوان «**المشكلات الأساسية للفينومينولوجيا**»، نشرها لأول مرة باللغة الألمانية في سنة (1975)، وتحديداً في المجلد الرابع والعشرين من أعماله الكاملة، وتمَّت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية سنة (1982)[23]. وفي صدر الكتاب، وتحديداً في الفصل الأول منه، كان كانط حاضراً، حيث خصَّصه لدراسة أطروحة كانط الأساسية عن الوجود، في ظلّ اعتقاده، بحسب قراءته التأويلية، بأنّ الكينونة لدى كانط ليست محمولاً واقعياً، وكرّس الفقرة السابعة فيه لدراسة مضمون هذه الأطروحة، بينما بسط في الفقرة الثامنة رؤيته الخاصَّة بالتحليلات الفينومينولوجية لشرح التصوُّر الكانطي بشأن الوجود، أو بشأن إعطاء الوجود. ويعتقد هايدغر بأنّ أطروحة كانط هذه كانت قد ظهرت في المرحلة قبل النقدية، وتحديداً عام (1763) في بحثٍ له تحت عنوان «**الأساس الممكن الوحيد للبرهنة على وجود الله**». وعاد مرّة أخرى للنظر فيها والعمل بها في عام (1781)، عندما نشر كتابه (**نقد العقل المحض**) في طبعته الأولى، كذلك الثانية سنة (1787)، وتحديداً في المنطق الترنسندنتالي. وفي هذه المحاضرات نفسها عاد هايدغر إلى كانط في الفقرات الثالثة عشرة والرابعة عشرة والحادية والعشرين.

وفي عام (1930)، كان هايدغر يلقي دروساً صيفيّة عن فلسفة كانط، تلك التي نُشرت تالياً كتاباً تحت عنوان (**ماهيَّة الحرية البشرية؛ مدخل إلى الفلسفة**)[24]، وخصوصاً الفصل الأول من الجزء الأول في الكتاب، الذي صدر عام (1982) ضمن الأعمال الكاملة (المجلد 31)، ما يعني أنّ هايدغر غيَّب نشرها في أثناء حياته أيضاً!!

24 Heidegger M,*Vom Wesen der menschlichen Freiheit.. Einleitung in die Philosophie.* GA 31, 1982

في سياق ذلك، سنجد هذا التداخل القرائيّ متاحَ الوجود، أيضاً، في ما أقبل عليه هايدغر نفسه عندما كان يلقي محاضرته في جامعة فرايبورغ - فرع بريسغاو[25] هذه المرَّة، وذلك خلال دورة عام (1936/1935) تحت عنوان «**الأسئلة الأساسية للميتافيزيقا**»، التي تحوَّلت إلى كتاب نُشر في عام (1962) تحت عنوان (**السؤال عن الشيء؛ حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كَانْط**)[26].

كذلك نجده يأتي إلى تناول كانط في دراسات أخرى غير مخصوصة به مباشرة؛ ومنها محاضرته الصيفية المهمّة عام (1936) عن «**أطروحة شلنج في ماهية الحرية الإنسانية**»[27]، وهي قراءة تأويلية كان لكانط حضوره فيها. وبين عامي (1943/1942) يكتب دراسته المطوَّلة (**مفهوم هيجل للتجربة**)[28]، وفيها يتطرّق إلى كانط، وبينهما، وتحديداً في عام (1938)، انتهى هايدغر من دراسته (**عصر صورة العالم**)[29]، وكذلك دراسته المهمة (**كلمة نيتشه؛ «الله مات»**) (عام (1943)[30]، ناهيك عن محاضراته في الموسم الدراسي لعامي (1956/1955) حول مبدأ السبب الكافي، التي نُشرت في عام (1997) تحت عنوان (**مبدأ العلة**)[31]. وفي مضمون كلّ هذه الدراسات أتى هايدغر على ذكر كانط فيها على نحو أو آخر، ما دلَّ على أنّه بقي مصاحباً لخطاب وكلام فيلسوف (**نقد العقل المحض**) في كتابات أخرى عديدة له حتى نشر عام (1961) دراسته (**أطروحة كانط حول الكينونة**)[32]، وهي الدراسة التي قد تكون كُتبت في وقت سابق لهذا التاريخ.

3

خلال قرنين من الزمان مضيا، تحضر فلسفة إيمانويل كانط في المشهد الفلسفي الحديث والمعاصر على نحو فاعل، وعلينا أن نتذكَّر هنا ما قاله كانط يوماً وعلى نحو ذاتي نادر؛ «جئتُ مع كتاباتي قبل الأوان بقرن من الزمان؛ لن يفهمني الناس بحق إلا بعد مئة عام، وإثر ذلك، سيدرسون كُتبي من جديد، ويعترفون بقيمتها»[33]. وفي خلال ذلك، لم يستطع فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين المرور فقط مرور الكرام على فلسفة كانط، إنما التوقُّف ملياً عند مشروعها بكلّ مفاصله. ولعل الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر أحد

25 في جامعة فرايبورغ درس هايدغر اللاهوت الكاثوليكي.

26 Heidegger M, Die Frage nach dem Ding Zu Kants Lehre von den transzendentalen Grundsätzen, (WS 1935), GA 41, 1984

27 Heidegger M, Schelling؛ Vom das Wesen der menschlichen Freiheit, (SS 1936), GA 42, 1988

28 Heidegger M, Hegel‘s Concept of Experience, in؛ M. Heidegger, *Off the Beaten Track*, ed. and Trans.؛ J. Young & K. Haynes, Cambridge University Press, 2001, pp. 86–156

29 Heidegger M, Die Zeit des Weltbildes, in؛ Heidegger, *Off the Beaten Track*, pp. 57-72

30 Heidegger M, Nietzsches Wort؛ „Gott ist tot“, in؛ M. Heidegger, *Off the Beaten Track*, pp. 157-199

31 Heidegger M, *Der Satz vom Grund*, (WS 1955-1956), GA 10, 1997

32 Heidegger M, Kants These über das Sein (1961), in GA 13

33 هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مقدّمة المترجم، ص95.

هؤلاء الفلاسفة، الذين أمعنوا النَّظر في فلسفة وكلام سلفه كانط، الذي شغل الدرس الفلسفي دون أن يملّه أحد حتى اللحظة.

وعندما توجّه هايدغر صوب الفلسفة، قراءةً ودرساً وتأليفاً، راح يتأبَّط مؤلّفات كانط الفلسفية، يقرؤها ويُعيد قراءتها بتؤدة وحرص وصبر وحب متواصل بقصد التفاعل معها، ومعاودة النَّظر في المعرفة الميتافيزيقية الخاصَّة بها، والإقامة عند منازلها، في ظلّ رغبة عارمة لإعادة تأسيسها من جديد باعتبار أن «الفلسفة هي تشغيل (In-Gang-bringen) للميتافيزيقا التي فيها تأتي إلى ذاتها، وإلى مهامها الصريحة»[34]، وجعل الفلسفة «تستيقظ وتتحرَّك، وهي التي تنتمي إلى كينونتنا»[35]. وكلّ ذلك بالانطلاق من حقيقة **الوجود**، باعتبار هذا الوجود هو النور المحجوب خلف الموجود، سواء كانت الذات البشرية أم الأشياء أو حتى الأشياء في ذاتها من خلال تصحيح النَّظر إلى سؤال الوجود، الذي يختلط غالباً بوهم سؤال الموجود على أنّه سؤال الوجود، الذي يُكشف من دون أن يكون مكشوفاً لنا.

إن علاقة هايدغر بكانط أكثر من أن تكون علاقة فيلسوف بفيلسوف، فهايدغر يعتقد بأنّ «فلسفة كانط حملت، لأول مرَّة، كل التفكير والكينونة الحديثين إلى ضياء التأسيس والشفافية، هذا التأسيس عيَّن، مذ ذاك، كل الموقف المعرفي، وكذلك عمل على حصر حدود العلوم وتقديرها في القرن التاسع عشر إلى الزمن الحاضر. وهنا سما كانط كثيراً على كل السابقين واللاحقين، إلى حدِّ أن أولئك الذين يرفضونه أو يتجاوزونه يبقون أيضاً خاضعين له تماماً»[36]. ما يدل على أن العلاقة مع كانط لا تبدو مجرد «علاقة تأريخ، وإنما هي علاقة إنصات وتباحث من أجل الوقوف عند حقيقة فكره الميتافيزيقية، أو عند الأسس التي يبني عليها استراتيجية تحليلاته ومعالجته لقضايا التفلسُف، وخاصةً أطروحته بصدد مسألة الوجود ومشكل الحقيقة»[37].

وهكذا، تبدو لهايدغر نظرة مختلفة في قراءته للموروث الفلسفي؛ ففي رأيه، وبحسب تعبير ستيبان أودويف، «أنّ المفكِّر المأخوذ بعين الاعتبار أو عمله يظلان غير مفهومين بعد وفاته، ويختفيان في ظلمة صوفية لا زمنية، ولا بدَّ، في سبيل إخراجهما من هذه الحالة خارج الزمنية، وعرض مغزاهما وعمقهما الحقيقيين، لا بد من **مفكِّر آخر** من الصنف ذاته والمعيار ذاته»[38]. وهذا، بطبيعة الحال، يتطلَّب «بيان الإمكانات الكمونيّة غير المحقَّقة، والمنظورات المنسيّة، المتخفيّة في أعماق فكره؛ هذا فنّ للقراءة بين السطور»[39]. ولذلك، لا يستطيع المرء أن «يتغلغل في ثنايا الفكر النَّظري السابق إلّا إذا عاشه حدْسياً، ولا

34 هايدغر، مارتن، ما هي الميتافيزيقا؟ ترجمة د. إسماعيل المصدق، ضمن كتاب؛ هايدغر، مارتن، كتابات أساسية، ج 2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص33.

35 المصدر نفسه، الهامش رقم 26، ص37.

36 هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، ص93 – 94.

37 طواع، محمَّد، هايدغر والميتافيزيقا؛ مقاربة تربة التأويل التقني للفكر، ص145.

38 أودويف، ستيبان، على دروب زرادشت، ترجمة د. فؤاد أيوب، دار دمشق، بيروت، 1983.

39 المرجع نفسه، ص344.

يكفي، من أجل ذلك، أن يتعلَّم قراءة ما كُتب وقيل بصورة حرفية، وأن يفهم ما فُكِّر؛ بل الشيء الأساسي هو أن يتعلَّم القراءة بين السطور، وأن **يفكِّر ما لم يقل**؛ ما يستتر خلف النَّص»[40].

إنّ كل الكتابات الهايدغرية القرائية عن فلاسفة وشعراء آخرين إنّما تنطلق من النظر إليها على أنها كينونات فلسفية، أو إبداعية شعرية[41]. وعندما نظر هايدغر إلى القراءات السابقة له، تلك التي تناولت كلام وفلسفة كانط، والتي هي بمثابة نقاب وُضع كانط تحته، بدت له مجرّد «نقاشات مستفيضة تحجب وتحمل المفهوم إلى وضوح مزيف»[42]. ولغرض السير في طريق قرائي للكلام الكانطي يتّسم بالاختلاف نحو الأعمق والأهم فيها، راح هايدغر يفترض، في هذا المجال، وجود ما أطلق عليه ما هو مسكوت عنه (Verschwiegenheit)، أو ما هو ملازم للصمّت في كلام تلك الفلسفة؛ مسكوت عنه سواء قصده كانط أم لا.

ولذلك، ينوِّه هايدغر إلى أنه «وفي أثناء الكلام الرفيع، يبقى السكوت الأصيل ممكناً، وحتى يمكنه أن يسكت، ينبغي للدّازين أن يكون له شيء ما ليقوله، وذلك يعني أنْ يتوافر على انفتاح أصيل وخصب على ذات نفسه، وعندئذٍ تنكشف القدرة على السكوت جلية، وتقطع حبل القيل والقال»[43]، أو الثرثرة الضارة، التي تأخذ الكائن إلى سقوط وانحطاط، ويضيف هايدغر، في موضع آخر، أنَّ «منْ أراد أن يدفعنا إلى الفهم وهو صامت، ينبغي أن يكون لديه ما يقول».[44] على «أن المسكوت عنه، من حيث هو ضرب من الكلام، إنما يُمفصِل مفهومية الدازين على نحو من الأصلية؛ حيث إنه إنما منه تنبثق القدرة على السماع الرفيع والكينونة-الواحدة- مع-الآخر الشفافة»[45]. وهذا تعبير هايدغري ملاقاتي يزخر ببراعة يبديها صاحب الغابة السوداء في فلسفته للقراءة التأويلية، فسكوت كانط عمّا أراد قوله في خطابه الفلسفي هو حالة طبيعية، لكنه يتطلَّب من القارئ النبيه، وفي أثناء ذلك، قدرة على الإصغاء أو السمع رفيع المنزلة لذلك المسكوت عنه مما يزخر به خطاب كانط من دون أنْ يقوله، وهو إصغاء شفاف وحصيف يعزل القيل والقال والثرثرة الفائضة عن الحاجة، ذلك الإصغاء الذي يذهب مباشرة إلى ما أراد كانط قوله، ولم يبدِه كلامه على نحو مباشر.

---

40 المرجع نفسه، ص345. ننوه بأن كلمة «حدْسياً»، في هذا المقتبس، تتقاطع مع توجُّهات هايدغر الفلسفية الوجودانية والأنطولوجية برمّتها. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ خصوم هايدغر يصفونه بأنّه حدْسي لا عقلاني.

41 لا يمكن تغييب الجانب القرائي التأويلي في منظومة الهرمينوطيقا الهايدغرية، ومن ذلك قول دايفيد غاسبر إنّ هرمينوطيقا هايدغر «تبتعد عن الانشغال بالتفسير النصي». انظر كتابه؛ مقدمة في الهرمينوطيقا، ص146. إنّ العلاقة بين الهرمينوطيقا والقراءة النصية التأويلية متوثبة في خطاب هايدغر، وشاهدنا كثرة القراءات التي قدمها هايدغر في حياته لكبار الفلاسفة من حوله.

42 هايدغر، مارتن، الكينونة والزمان، ص318. ويبدو أنّ رؤية هايدغر هذه موجَّهة إلى الكانطيين المحدثين، الذين لم يبلوا البلاء الحسن وهم يقرؤون فلسفة كانط حتى نقبوه بالغموض واللف والدوران، وإذا كانوا يتوقعون أنهم يوضحون كانط للقارئ فإنما توضيحهم لا يعدو سوى تزييف لحقيقة الفلسفة الكانطية.

43 هايدغر، مارتن، الكينونة والزمان، ص319. المسكوت عنه باللغة الإنجليزية هو (Reticence)، وذلك بحسب ترجمة جون ستانبغ. أمّا الدكتور المسكيني فهو يترجمه، بحسب سياق وروده، مرة إلى «المسكوت عنه/ ص319»، وإلى «صمت/ ص334، وإلى «سكوت الدّازين عن نفسه/ ص486»، وإلى «السكوت/ ص521، ص492»، وإلى «الكلام بما هو ضرب من السكوت/ ص522»، وإلى «مُلازم للصمت أو ملازَمة الصمت/ ص563»ثم.

44 هايدغر، مارتن، الكينونة والزمان، ص521.

45 المصدر نفسه، ص319.

وسكوت كلام كانط هنا لا يعني الحجب المطلق؛ ذلك أنّ للسكوت **قوله الذي له**، وتلك فكرة رائقة، وما قراءة هايدغر لفلسفة وكلام كانط سوى استحضار «قول السكوت ذاك»؛ استحضاره إلى واضحة النهار المقروء، استحضار المسكوت عنه في كلام كانط.

4

من جانب آخر، وبينما كان هايدغر يحرّر فصول كتابه (**الكينونة والزمان**)، كان أيضاً يلقي محاضراته عن إشكاليّة الميتافيزيقا الكانطية، بدا يدخر وقتاً لقراءة صفحات كثيرة من (**نقد العقل المحض**) بوصفه كينونة معرفية ذات كلام وقول، إلى جانب بقيّة مؤلّفات كانط الأخرى، قراءة ما بين السطور، واضعاً في اعتباره جُملة ما أحاط فلسفة كانط من أسوار القيل والقال أو الثرثرة نقاباً حاجباً ربّما كان أهمها ما ضربته الكانطية المحدثة حول أفكار كانط الفلسفية نقاباً، وهو ما لاحظه هانز جورج غادامر في كتابه (**طرق هايدغر**)، الذي قال فيه؛ «إن ما اكتشفه هايدغر، في الواقع، هو كانط الذي ضاع بين حُجب الكانطية المحدثة»[46]. على أنّ مسعاه ذاك ما جاء من مجرَّد قراءة عابرة، إنّما من قراءة عميقة تنبش في ما بين السطور، قراءة تأويلية مصغية وبشفافية عالية الأداء للمسكوت عنه لدى كانط؛ قراءة ترمي إلى استجلاء الإمكانات الكمونية غير المحقَّقة قولاً مباشراً، والمنظورات المنسية والمتخفية في أعماق فكر كانط الفلسفي؛ ذلك أنّ «احتكاك هايدغر بالكانطية الجديدة أو المحدثة، خلال سنوات تدريسه في جامعة ماربورغ، كان ضمن العوامل التي أثارت اهتمامه بكانط، لكن هذا لا يعني، بأيّ حال، أنه «كان يتبنّى تأويل الكانطية الجديدة لكانط أو لمؤلّفه (**نقد العقل المحض**)؛ بل إنّه، على العكس من ذلك تماماً، كان يفهم كانط ويؤوِّله من زاوية تختلف جذرياً عن الكانطية الجديدة؛ بل حتى يمكن القول أكثر من ذلك؛ فإقدامه على تأويل كانط كان حافزه الولوج إلى ميدان يمكن أن يتّضح فيه الفرق بين فلسفته التي كانت آنذاك في طور التكوين وفلسفة الكانطية الجديدة، وأن تُختبر فيه فلسفته بمقارنتها مع فلسفة الكانطية الجديدة»[47]، وخصوصاً أنّ الفرق بين رؤيته ورؤية الكانطية الجديدة كان شاسعاً؛ فهذه الأخيرة «تعتبر نقد العقل المحض نظرية في المعرفة العلمية أو نظرية للتجربة أو للعلوم الوضعية، وكانط قام، في هذا المؤلَّف، وبحسب الكانطية الجديدة، بتأسيس علم للطبيعة، وبلورة مفهوم نقدي عن الطبيعة، والمطروح الآن على الفلسفة، وبحسب الكانطية الجديدة، هو توسيع النقد الكانطي ليشمل العلوم التي كانت تسمّى علوم الثقافة أو الروح. وإذا كان هايدغر يعتقد أنّ السؤال الجدير بأن يُطرح هو سؤال الكون [الكينونة]، فإنه لن يقبل بالطبع النَّظر إلى نقد العقل المحض كمجرَّد تأسيس لعلم الطبيعة الحديث، أو بوصفه نظرية للمعرفة؛ فالمشكل الذي يهيمن على الفلسفة الغربية بأكملها يتعلَّق بالكائن. ولهذا، إنّ نقد العقل المحض لا يمكن أن يكون نظرية للمعرفة؛ بل يجب النظر إليه من زاوية السؤال عن الكون [الكينونة]»[48].

---

46 غادامر، هانز جورج، طرق هايدغر، ترجمة د. حسن ناظم، ود. علي حاكم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ص147.

47 انظر؛ هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مقدّمة المترجم، ص12 – 13.

48 المصدر نفسه، مقدّمة المترجم، ص13 – 14.

ويضيف الدكتور المصدق في هذا الشأن؛ «إنّ تأويل الكانطية الجديدة لنقد العقل المحض ناشئ، بحسب هايدغر، عن الارتباك الذي وقعت فيه الفلسفة بعد أن اقتسمت علوم الطبيعة وعلوم الروح مجالات الكائن المختلفة. إنّ السؤال، الذي أصبح يُطرح على الفلسفة في هذه الوضعية، هو؛ ما الذي يبقى، إذن، للفلسفة؟ يشترك عدد من الاتجاهات في القول إنّه لم يبقَ للفلسفة إلا معرفة العلم، أمّا معرفة الكائن فلم تبق من شأنها. وانطلاقاً من هذا التصوُّر، تمَّ الرجوع إلى كانط، الذي عُدَّت فلسفته في (**نقد العقل المحض**) نظرية للمعرفة الرياضية الفيزيائية. وبخلاف ذلك، يرى هايدغر أنّ نظرية العلم غير أساسية في نقد العقل المحض؛ فلم يكن هدف كانط، بالدرجة الأولى، وبحسب هايدغر، أن يقدِّم نظرية لعلم الطبيعة، ولا أن يصوغ مفهوماً نقدياً عن الطبيعة؛ إنّ (**نقد العقل المحض**) ليس نظرية حول الطبيعة كموضوع لعلم الطبيعة؛ بل **حول الكائن عموماً**. إنه يطرح إذاً مشكلة الميتافيزيقا؛ ذلك أنه فقط، وبعد بسط مشكلة الميتافيزيقا، يمكن التساؤل عن الطبيعة والتاريخ كمجالين للكائن، وعن العلوم التي تهتم بهما. إن (**نقد العقل المحض**) هو تأسيس صريح للميتافيزيقا»[49] بوصفها علماً كما كان كانط تحذوه الرغبة بذلك، ولا سيما أنّ دلالة «النقد» لديه تتوجَّه نحو «قدرة العقل بعامة بالنظر إلى جميع المعارف، التي يمكن أن ينزع إليها، بمعزل عن أيّة تجربة، ومن ثَمَّ الفصل بين مسألة إمكان الميتافيزيقا عامة أو لا إمكانها، وتعيين مصادرها ونطاقها وحدودها، وكل ذلك بناء على مبادئ»[50]، ما يعني أن النقد يطال الميتافيزيقا ويتمفصل في إشكالية سؤال الميتافيزيقا، وهذا لم يتوخه الكانطيون الجدد سوى أنهم تمسَّكوا بالجوانب العلمية فيه.

لقد ظل مارتن هايدغر يدافع عن أفكاره المغايرة لتأويل الكانطيين المحدثين، حتى وقت متأخّر من حياته. ولكنه، وليس دفاعاً عن مدرسة الكانطية المحدثة. من الضروري الإشارة هنا إلى أنّ قراءة الأقسام الأولى من (**نقد العقل المحض**) تكشف عن نظرية معرفة نقدية تبدو واضحة المعالم، وهو ما درسناه في أطروحة جامعية تقدّمنا بها عام (1994) لنيل درجة الماجستير من قسم الفلسفة في جامعة بغداد، لكنّ هذا لا يعني أنّ مشروع كانط الفلسفي، مترامي الأطراف، يخلو من جوانب أخرى تستحقّ الاهتمام، ومن ذلك الجانب المتعلق بالسؤال الميتافيزيقي.

على أيّ حال، نحن نعتقد بأنّ ما تدفَّق في ذهن هايدغر عن فلسفة كانط كان يستبطن، لسنوات عدة تالية، كتاب (**الكينونة والزمان**)، إلا أنّ هذا ليس سوى مظهر من مظاهر استثمار هايدغر للفكر؛ بل الكلام الكانطي في بناء قراءة مغايرة لقراءة الكانطيين المحدثين؛ حيث أدّى ذلك إلى حماسة راسخة أفضت إلى حمل هايدغر أفكاره القرائية عن كانط إلى قاعات الدرس الجامعي، وصبها في محاضرات كان يُلقيها على تلامذة الفلسفة في جامعة ماربورغ، لتحليل جوانب عدَّة من فلسفة كانط قبل صدور كتابه (**الكينونة والزمان**)، وهو ما فعله، بدايةً، بين عامي (1926/1925)، وخصوصاً محاضرته الشتوية، التي نُشرت

49 المصدر نفسه، ص13 – 15.

50 كانط، إيمانويل، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبه، دار التنوير، بيروت، ط 2، 2015، ص31.

تحت عنوان «**المنطق؛ السؤال عن الحقيقة**»، وتبعت ذلك محاضرته، التي ألقاها في صيف عام (1927) بعنوان «**المشاكل الأساسية للفينومينولوجيا**»، في وقت كان فيه كتابه (**الكينونة والزمان**) قد صدر؛ تلك المحاضرة، التي تطرَّقت إلى مفهوم الكينونة (Sein)[51]، الذي عرض له في (**الكينونة والزمان**) بوصفه مفهوماً مركزياً، ولاسيما أنّ هذا المفهوم ارتقى إلى عنوان كتاب هذه المرة.

وفي خلال ذلك، تولّدت لدى فيلسوف الغابة السوداء ألفة قرائية مع كانط، فراح يلقي محاضرات جامعية في سنة (1928/1927)، بدت مخصَّصة لفيلسوف (**نقد العقل المحض**)، وجاءت بعنوان «**تأويل فينومينولوجي لنقد العقل المحض**»، وهي المحاضرة الأولى التي يتضمَّن عنوانها عنوان كتاب كانط العمدة.

لقد تكلّلت تلك القراءات، سواء كانت قراءات أولية أم محاضرات تحليلية، تكلّلت بتنضيد مشروع كتاب نشره هايدغر في عام (1929) تحت عنوان (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)، أعقبتها مناظرة جدالية بين هايدغر وأرنست كاسيرر، أحد فلاسفة الكانطية المحدثة البارزين في ماربورغ، وقد أُلقِيَت في مدينة دافوس في شتاء عام (1929) حتى سُميت «مناظرة دافوس»، وتناولت في الأساس علاقة الفلسفة بالعلوم، لكنّ هايدغر دافع فيها عن رؤيته المناوئة لرؤية الكانطيين المحدثين، بعد أن تناور الكلام مع كاسيرر عن فلسفة كانط في (**نقد العقل المحض**).

في تلك المناظرة أكَّد هايدغر موقفه الصارم، الذي يرى في كانط فيلسوفاً أفنى عمره في سبيل بناء رؤية ميتافيزيقية فلسفية خاصَّة كانت **غاية** كتابه (**نقد العقل المحض**)، وإن بدا الأمر تنضيداً لبناء نظرية معرفة غالباً ما يوصف بالنقدي. ولذلك، كانت تلك المحاضرة بمثابة الحافز لكي يواصل هايدغر قراءاته التأويلية لفلسفة كانط، فجاءت محاضرته في صيف عام (1930) بعنوان «**في ماهية الحرية البشرية؛ مدخل إلى الفلسفة**»، تبعتها، في دورة شتاء عام (1936) محاضرته ذات الأهمية الفائقة؛ «**السؤال عن الشيء؛ حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كانْط**»، ومن ثمّ محاضرته التي ألقاها في عام (1961) بعنوان «**أطروحة كانط حول الكينونة**»، إلا أنّ محاضرته حول «**السؤال عن الشيء**» أرست دعائم الطريقة، التي قرأ بها هايدغر فلسفة كانط بحسب ما يُريد ويتمنّى على الكانطيين المحدثين السير بمقتضاها؛ فحصرُ كانط في زاوية ننظر إليه من خلالها بأنّه فيلسوف نظرية معرفة فيه إجحافٌ قاسٍ. لهذا، بثَّ هايدغر الروح في جسد الفلسفة الكانطية عندما أصغى إلى صوتها الأصل بما يتلاءم وجوهر ما كان يسعى إليه عبْر قراءاته المتواصلة لنصوص كانط الفلسفية، وهو بصدد تشييد رؤية فلسفية تنتصر للوجود المنسيّ والأنطولوجيا المتوارية في تلك النصوص.

51 انظر؛ د. إسماعيل المصدق، في؛ هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، ص8.

في كتاب (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)[52]، آنف الذكر، تطرّق هايدغر في فصله الأول إلى المفهوم التقليدي للميتافيزيقا في محاولةٍ منه للكشف عن السياق التأريخي/التاريخاني، الذي اختمرت به أفكار كانط الميتافيزيقية، وتطرّق إلى نقطة مغادرةِ الميتافيزيقا أسسَها التقليديةَ، ومن ثَمَّ حالتها (الميتافيزيقا) كما تتجلّى في كتاب كانط (**نقد العقل المحض**). وفي الفصل الثاني، الذي احتل غالبية صفحات الكتاب، درس ماهيّة المعرفة عامة، وماهيتها معرفةً محدودةً، والحقل الأصلي لوضع أساس الميتافيزيقا، وانتقل إلى دراسة الخطوط العريضة لوضع أساس الأنطولوجيا، وكذلك الطريقة التي يتنزّل فيها الأصل، وألقى الضوء في مستوى أول على العناصر الماهوية للمعرفة المحضة، والحدْس المحض في المعرفة المتناهية، وتوضيح المكان والزمان بوصفهما حدوساً محضة، وكليّة الحدوس المحضة، ومستوى الفكر المحض في المعرفة المتناهية، والمفاهيم المحضة للفاهمة بوصفها أفكاراً، والأفكار بوصفها محمولات أنطولوجية. ودرس، في رتبة ثانية، السؤال عن ماهوية وحدة المعرفة المحضة، وأوضاع التركيب الأنطولوجي، وكذلك مشكلة المقولات ودور المنطق الترنسندنتالي في فضائهما معاً. ودرس، في مستوى ثالث، وحدة التركيب الأنطولوجية من خلال الشكل الخارجي للاستدلال الترنسندنتالي. وفي مستوى رابع درس الحساسية والصور والشّيامة أو الشَّيم، وهو ما يدخل في إطار بنية المعرفة الأنطولوجية في علاقتها بهذه المفاهيم، التي اعتمدها كانط في نظرية المعرفة. وفي المستوى الخامس ألقى الضوء على ماهيّة المعرفة الأنطولوجية. أما في الفصل الثالث، فتناول التخيُّل والمخيِّلة بالمعرفة الأنطولوجية، وعلاقتهما بالحدْس المحض، وبالعقل النظري، وبالعقل العملي، وبالزمان، ليختم هذا الفصل، وبالمرة الكتاب، بتناوله مسألة ميتافيزيقا الدازين أو ممكن الوجود بذاته (Dasein) بوصفه أنطولوجيا أساسية، وكذلك تطرّق إلى فكرة وهدف الأنطولوجيا الأساسية، وعلاقة فكرة الأنطولوجيا الأساسية بكتاب كانط (**نقد العقل المحض**).

يبدو واضحاً كيف سار هايدغر، وهو يسعى إلى قراءة تأويلية في دروب (**نقد العقل المحض**) بكلّ ما في تلك الدروب من بناء مفاهيميّ كثفه كانط في خطابه الفلسفي، ليس من أجل التطابق مع تلك المفاهيم، إنّما الاختلاف معها بقصد استعادة الميتافيزيقا مهابتها الخاصّة من خلال «إجلاء الإمكانات التي تكمن فيها»[53]، كما «قال هايدغر في المباحث الأخيرة من كتابه (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)»[54]. ولذلك نلاحظ كيف نفذ مصطلح الدازين أو ممكن الوجود بذاته في تلك المباحث، ومعروف أنّ هايدغر حقن هذا المفهوم بدلالة جعلته حياً في (**الكينونة والزمان**) بوصفه عتبةً مولِّدة لمعانٍ فاعلة في مسائل الكينونة والوجود، وليس هذا فقط؛ بل انسلّ هايدغر إلى مسائل الأنطولوجيا الأساسية الذي دعا إلى معاودة تأسيسها من جديد.

وفي نصّ جميل جاء إلى عنوان (**في آداب الكينونة**) يعود إلى عام (1947)، كتب هايدغر؛ «رب هبة تكمن في أنّه إنما في الفكر تأتي الكينونة إلى اللغة، فإن اللغة هي مسكن الكينونة، وإنما في هذا السكن يقيم

52 Heidegger M., *Kant and the Problem of Metaphysics*, Indiana University Press, 1965.

53 محجوب، محمّد، هيدقر ومشكل الميتافيزيقا، دار الجنوب للنشر، تونس، 1995، ص56.

54 المرجع نفسه، ص56.

الإنسان. إنّ المفكّرين والشعراء هم الساهرون على هذا السكن. إنَّ سهرهم هو ما يُنجز تجلي الكينونة، من جهة ما يحملون هذا التجلي إلى كلم اللغة وكانوا عليه في اللغة حافظين»[55]. وهذا يعني أن وَكْدَ الفيلسوف التأويلي، فيلسوف القراءة التأويلية، بل غايته؛ إنّما هي الوصول إلى الكينونة من خلال إجلاء حقيقتها، وذلك توجُّه بل عناية تأويلية همَّ بممارستها الفيلسوف بوصفه الساهر الأصيل على الكينونة، ولما كانت الكينونة تسكن اللغة، فإلى هذه اللغة تتوجّه القراءة التأويلية، إلى كلامها تنصرف القراءة التأويلية، الذي هو كلام هذا الفيلسوف أو ذاك، وهو ما أقبل عليه هايدغر في قراءة للكلام الكانطي.

5

لم يمضِ حضور القراءة الهايدغرية المخصصَّة لكانط على وتيرة واحدة، ولا وفق مستوى واحد؛ ففي داخل تلك الوتيرة وذاك المستوى نجد تنويعات قرائية حتى يبدو أن ملاقاة هايدغر القرائية لسلفه كانط مضت في طريقين؛

الأول؛ الطريق الذي سلكته كتابات هايدغر، تلك التي يظهر فيها كانط فيلسوفاً **يُستشهد** به ضمن تحليل إشكالية أو قضية أو مسألة أو مفهوم فلسفي ما في سياق معيَّن، دفاعاً أو قبولاً، أو في سياق مقاربة تهدف إلى مقارنة كانط مع غيره من الفلاسفة؛ حيث لا توجد **قصديَّة مخصوصة** يمكن أن يظهر فيها كانط أو فلسفته محورَ بحث وتفكُّر مخصوص. وفي هذا الاتجاه، بدأت كتابات هايدغر عن كانط منذ عام (1912)، ولم تتوقَّف إلا بوفاته عام (1976). وظهرت في هذا الاتجاه مقالات كتبها هايدغر، ومحاضرات جامعية كان قد ألقاها هنا أو هناك، ومن ثمّ بحوث ودراسات عدّة، وصولاً إلى الكتب القائمة برأسها تلك التي كان لكانط فيها حضوره الواضح في كينونة القراءة الهايدغرية، من دون أن يكون كلام هذا الفيلسوف مقروءاً على نحو مركزيّ إنْ صح التعبير.

الثاني؛ الطريق الذي سلكته محاضرات وكتب ومقالات لهايدغر عن كانط على نحو **بؤري**؛ حيث كان هذا الفيلسوف موضوعة **تتشعّب مركزياً** أمام التحليل والمعاينة. لقد بدأ ذلك منذ محاضراته الجامعية للفصل الدراسي (1926/1925)، التي تجلَّت تالياً في كتابه (**كانط ومشكلة الميتافيزيقا**)، ومن ثمّ محاضراته الجامعية للفصل الدراسي (1928/1927) عن اهتمامه بإيجاد **تفسير فينومينولوجي لكتاب كانط (نقد العقل المحض)**، ومن ثَمَّ محاضراته الجامعية للعام الدراسي (1936/1935) عن **الأسئلة الأساسية للميتافيزيقا** أو **ما هو الشيء. نظرية المبادئ الترنسندنتالية أو المجاوزة عند كانط؟** وصولاً إلى دراسته الصغيرة **أطروحة كانط حول الكينونة** لعام (1961)، التي نشرها بعد عام في كتابه (**علامات الطريق**)، الذي صدر في عام (1962).

---

55 هايدغر، مارتن، في آداب الكينونة، ضمن كتاب د. فتحي المسكيني؛ التفكير بعد هايدغر أو كيف الخروج من العصر التأويلي للعقل؟، دار جداول للنشر والتوزيع، بيروت، 2011، ص193 - 194.

وهذا يعني أنّ الملاقاة الهايدغرية لكانط عامةً، سارت في الاتجاهات الآتية؛ (1) بقاء التلازم بين هايدغر وكانط مستمراً لعقود طويلة على الصعيد القرائي في مستوييه الكمي والكيفي. (2) كانت الفترة من عام (1912) حتى عام (1962) فترة مُنتجة على الصعيدين أعلاه؛ حيث ظهر كانط موضوع عناية في محاضرات ومقالات ودراسات وكتب تباعاً. (3) شهدت الفترة من عام (1925) إلى عام (1936) تركيزاً هايدغرياً منقطع النظير على قراءة فلسفة كانط في الكتب الآتية؛ **الكينونة والزمان، وكانط ومشكلة الميتافيزيقا، ونقد العقل المحض. تفسير فينومينولوجي، والسؤال عن الشيء**. وكانت الكتب الثلاثة الأخيرة منها محاضرات، وقد تحوَّلت إلى كتب نُشرت في حياة هايدغر وبعد وفاته، أمّا دراسته (**أطروحة كانط حول الكينونة**)، فقد نشرها هايدغر في عام (1962)، وقد أكَّد فيها هايدغر أنّ «رجوع كانط إلى الأنا أفكِّر هو رجوع من أجل الوقوف على الأساس الذي يُحدِّد الوجود أو هو رجوع إلى منحدر الوجود؛ أي إلى ما يؤسِّس إبداع الموضوعات باعتبارها حقيقة الوجود»[56]، وهو تأكيد شممنا عطره في دراسات قرائية تأويلية سابقة لهايدغر عن كانط تعود إلى عقود قبل هذا التاريخ.

إنّ تلمُّس مسارات القراءة الهايدغرية لفلسفة مواطنه إيمانويل كانط تتطلَّب قراءة كلّ هذه الأعمال المذكورة بتؤدة ومتابعة تأريخية لتبيان الكيفية التي يفكِّر بها هايدغر داخل المتن الكانطي وخطابه برمته، إلّا أنّنا مرحلياً يمكننا أن نقف عند بعضها، وهي؛ **أنطولوجيا؛ هرمينوطيقا الواقعانية**، ومن ثمّ الكينونة والزمان، ثمّ **كانط ومشكلة الميتافيزيقا**، وتالياً محاضرة **الأسئلة الأساسية للميتافيزيقا** أو **السؤال عن الشيء**، ومن ثَمَّ **مبدأ العلة**، من دون بخس مكانة بقية مقالاته ودراساته وكتبه ومحاضراته الأخرى التي أولت الخطاب الكانطي الشأن العظيم.

في كلّ قراءاته التأويلية لعدد من الفلاسفة الذين تناولهم درساً وقراءة، رام هايدغر فتح حوار متسائل مع خطابهم في ذاته مباشرة، وفي عام (1954) نشر كتابه (**محاضرات ومقالات**)، الذي ضمَّ، من بين ما ضمّ، مقالته الشهيرة عن الشذرة رقم (16) لهيراقليطس، وأكَّد فيها مفهوم «الحوار المتسائل»، الذي لا بد من أن ينصرف إلى الفتح الفكري مع الفيلسوف المعنيّ مباشرة من دون الاعتناء بتأريخ ما قيل عنه، وكان حديث هايدغر ذاك بمناسبة قراءته لشذرة هيراقليطس إيّاها، التي جرت وفقاً لتفسيرات عدة، ومنها التفسير اللاهوتي، ولهذا قال هايدغر؛ «سيجد أحدنا أنّ هذا التنوُّع في التفسير سيهدِّده بمواجهة شبح النسبية المفزع، فما السبب في هذا؟ لأنّ الخطأ التأريخي، الذي تنطوي عليه هذه التفسيرات، يكون، في هذه الحالة، قد تخلى عن الحوار المتسائل مع المفكّر؛ بل لعله لا يكون قد دخل بالمرَّة في مثل هذا الحوار. إنّ الوجه الآخر لكلّ تفسير يُقدَّم لتفكير المفكِّر عن طريق الحوار معه إنّما هو علامة خصوبة لم تُقل أو لم يُعبَّر عنها، مطوية في ذلك الذي لم يستطع هيراقليطس نفسه أن يقولهُ، أو يُعبِّر عنه إلا عن طريق النظرات التي قُيِّضت له

56 انظر؛ طواع، محمَّد، هيدجر والميتافيزيقا؛ مقاربة تربة التأويل التقني للفكر، ص160. يستند الدكتور طواع إلى متن دراسة هايدغر «أطروحة كانط حول الكينونة» بترجمته الفرنسية.

وحده»[57]. وفي الواقع، ومنذ بداياته الفكرية والفلسفية، قرَّر هايدغر ألّا يتخلّى عن حوار متسائل كهذا في قراءاته التأويلية لغيره من المفكّرين والفلاسفة، ومنهم كانط الذي دخل معه مباشرة في حوار ونقاش تساؤلي أثمر ما جادت به تلك القراءات من محاضرات ودراسات وكتب عُدَّت حتى الآن أنموذجاً لذلك الحوار الخلاق. وكلّ ذلك يعني أنّ القراءة هي حوار تساؤلي، وتلك مزية من مزايا القراءة الهايدغرية.

يبدو لنا أنّ هايدغر وضع في كتاباته ومحاضراته ودراساته ومؤلَّفاته جُلّ ما تُريد تأويليّته القرائية قوله عن كانط، وهي تأويلية قرائية يتقدّمها التوضيح والتحليل والتفسير حتى بدت مَهمتها «إعادة التشييد الأثري لمقصد كانط، وبما يتوافق مع التفاصيل النصية التي يمكن التحقق منها[58]، وهو تشييد يتوارى خلف المدون الكانطي ما استدعى الإصغاء إلى صوته المتواري، وصرف سطح النص إلى ما يمكن أن يُضمره، وفي الوقت ذاته، تبيان التشييد القرائي التأويلي لهايدغر نفسه، وهو يلاقي فلسفة كانط، وخصوصاً أن التشييد الهايدغري راح يتبدّى في أغلب مسارات هايدغر الفلسفية، حتى إنّه قال مرة في كتابه (السؤال عن الشيء...)؛ «نجعل من سؤال كانط سؤالنا»[59]، بمعنى أنّ هايدغر كان يستدرج كانط إلى حبائل منظومته وباقة مفاهيمه الفلسفية؛ حيث كان يريده فيلسوفاً أنطولوجياً أو يتمنّاه؛ ذلك الفيلسوف الذي كان يفكّر في الإنسان والطبيعة والوجود بوعي أنطولوجي أساسي.

6

عندما نتفيَّأ بما هو تأويلي، وخصوصاً عندما تكون القراءة نشيداً يقصدُ ظلال المعاني ودلالات الأفكار، التي قد تكون محجوبة ومتوارية خلف لغة الكلام، لا بدَّ لنا من أن نتوقَّف عند **جرة التأويل**، التي كان يحملها الفلاح الجبلي[60] مارتن هايدغر، نتوقَّف ونتعرَّف إلى تلك الجرة لنكتشف أنّها تضم عسل التأويل، ولكنَّنا لو توغلنا أكثر في قاعها لوجدناها تضمُّ أيضاً كينونة الهرمينوطيقا، فكان لزاماً علينا خوض غمار فهم كلتا الكينونتين؛ فالتأويل (Interpretation) لدى هايدغر فعل قرائيّ ينطلق من زاوية نظر بحسب توجُّهات ما تُريد قوله الفاهمة التأويلية الهايدغرية، كما أنّ التأويل تعرُّف وليس مجرّد معرفة فقط، ومن ثمّ يتخذ التأويل من المساءلة الهرمينوطيقية طريقاً له، كما أنّ التأويل هو تقويض بقدر ما هو نزع للنقاب، الذي يحجب الأسئلة الحقيقية لكلام المقروء أو كلام الفيلسوف المدروس «موضوع التأويل». أمّا الهرمينوطيقا (Hermeneutik) فهي فعل تبيين وبسط وتفسير وجوداني أنطولوجي أصلي، ولا يمكن النظر إليه إلا

57 هايدغر، مارتن، أليثيا؛ هيراقليطس - الشذرة السادسة عشرة. ضمن كتاب؛ هايدغر، مارتن، نداء الحقيقة، ترجمة وتقديم ودراسة عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1977، ص370.

58 ليتش، فنسنت ب، قراءة النصوص، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، نوافذ، العدد 40، كانون الأول/ديسمبر 2011، الرياض. ص56.

59 هايدغر، مارتن، السُّؤال عن الشيء، ص94.

60 هكذا يصف غادامر هايدغر؛ «هايدغر الرجل الجبلي، الريفي، الصغير الجسم، ذو النظرة الغامضة، الذي يخترق مزاجه كلّ شيء رغم محاولاته ليكون متحفظاً». انظر؛ غادامر، هانز جورج، التلمذة الفلسفية، ترجمة حسن ناظم، علي حاكم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013، ص110.

بوصفه الأساس المتلازم لكلّ تأويل ممكن الوجود، فلا تأويل من دون حمولة هرمينوطيقية تعزّز مقامنا المؤوَّل أصلاً في الوجود.

لقد أرست القراءة الهايدغرية للفلسفة الكانطية تقليداً قرائي المنحنى ظهرت معطياته في الفلسفة الأوربية خلال القرن العشرين (وخصوصاً النِّصف الثاني منه) حيث فتح (هذا التقليد) الأفق متاحاً لقراءات فلسفية تالية نهض بها فلاسفة أوربيون كبار لنظرائهم الآخرين من الفلاسفة، وسواء اتفقوا أم اختلفوا في تلك القراءات، أرسوا، بدورهم، التقليد القرائي ذاته، ومن ذلك قراءات جاك دريدا لفريدريش نيتشه، ولإدموند هوسرل، وكذلك قراءة جيل دولوز لهنري برغسون، ولديفيد هيوم، ولإيمانويل كانط، وغيره من الفلاسفة. لقد كانت هذه القراءات التواصلية -البينية وغيرها الدليل الحيوي على تواصلية قرائية لا بد من الرجوع إليها لأنها تُعدُّ موروثاً هائل الرؤية والمنهج في مجاله.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022